

القصص

نومان ...

كان جواباً حاسماً، ولكن رئيس الجنود جمع شتات شجاء؛
وصاح معترضاً :

— وكيف نتركها لكم؟ هذا لن يكون

وقبل أن يلفظ الحرف الأخير دوى صوت الطلقة التي
أطاحت قبمته ...

— هاه! هيا سيروا، ولا يلتفتن أحد وراءه ...
وكان أول من لكز حصانه رئيس الجنود وقد ماكه الذعر
فأرسل العنان لفرسه لا يلوى على شيء، وأرسلنا الأعنة لخيولنا،
نريد أن نبلغ « الحان » قبل الغيب

لاحت لنا بيوت الشعر من قرية الحان وبين الشمس وبين
أن تفسب قليل، وكانت خيولنا تسير ببطء وتناقل، كأنما تحس
بما عليها من عار وخزي، وكان الجنود صاهمين لا ينبس أحدهم
بنت شفة، فكان الخوف والحجل تكاتفنا على إظهارهم
بمظهرهم هذا الذليل؛ وسرت خلفهم منبرلاً عنهم أفكر في هذه
المهزلة التي أكرهنا على تمثيلها. فلما لاحت لي أطلال « الحان »
المتيق تحيط بها بيوت الشعر عنت لي فكرة، فعزمت على أمر
تلقانا مختار^(١) القرية، التي كنت به وبأهل قريته عارفاً،
بغير ما يتلقى الرء، ولما ترجلت انتحيت به ناحية وقلت له:
— أريد نومان

فرفع إلى رأسه ثم ألقى على أصحابه الجنود نظرة أعادها إلى
في دهشة وتساؤل، فنبست وقلت:

— لا تخش شيئاً، لست أجهل أن نومان طريد الحكومة
ولكنني أطلبه

فحرك كتفيه باستسلام وقال:

— كما تشاء

ومضى، ولم تكن إلا برهة حتى طاد وأسر إلى: « هو
ستظرك عند الجدار الغربي من الحان »، قيمت السكان الذي

(١) مختار القرية النورية هو ممدتها للصري

— مكانكم!

لوبت عنان فرنسي نحو مصدر الصوت الأمر، ولكن
العثير الذي أنارته حوافر الشياه حال دون أن أرى شيئاً،
وصبرت قليلاً فلاح لي خلال ذرات التراب الحائرة أربعة أشباح
قد اعترضت سبيل الماشية فحالت دون سيرها، ولما هد
الغيار تبينت في الأربعة الأشباح أربعة رجال قد ضرب كل منهم
لثامه على وجهه فلم يبق منه إلا عيان كميني التصقر، وتمنطق كل
منهم بحزام من الرصاص لمعت ظروفه النحاسية تحت أشعة
الشمس السائلة للغيب، وسدد كل منهم فوهة بندقيته الكامدة
نحونا، لا يتحرك ولا تطرف عينه

وانطلق الصوت الأمر مرة أخرى أجش:

— مكانكم قبل الهلاك! ...

وأدريت رأسى ببطء نحو رفاقي في رحلتي، وكانوا أربعة نفر
من جنود الشرطة السورية، فتبينت وجوهاً علاها الاضطراب،
ورؤوساً منكسة الأذقان؛ ورأيتهم وكل قد خفض بصره فزعا،
يخالسون الأنظار ويسترقون الرؤية؛ فكادت، أما موظف الحجز
في محكمة « الرقة » أقمته في الموقف المصيب من أمر هؤلاء
النفر، يرتعدون هلعاً وفي كتف كل منهم بندقية كأنما علفت
بإشارة ناطقة على الجبن والظور

وساد صمت حير لم يقطعه إلا حوافر الخيل تضرب
الأرض، وارتفع بعدها الصوت الأجش:

— هذا الطريق إلى « الحان » فدوتكموه ... هيا!

سكت أصحابي ولكنني قلت مستهتماً:

— وهذه الماشية المحجوزة؟

— هيا ... الماشية لنا ...

وكواسرها ، وعواء الكلاب يتردد في أطراف المنازل تارة وتارة ويقطع أخرى ، ولاح لي « الحان » كشبح جبار أسود جامم في الفلاة اللترامية الأطراف ، فوضمته نصب عيني وأصغت بدمي إلى الطييمة الساكنة .

كم هي رهيبة هذه الفناطر المقودة والأقواس المتتالية في ردهات « الحان » المتتيق !

كم هي سببية هذه الأعمدة المتوازية التي تملأ أبهاء مشققة السطوح مهشمة الرؤوس ! وهذه الجدران التي لم يذهب من حجارتها ، على كرات القرون والمصور ، إلا ما أخذ أناني للقدور وأركانها للوقايد ! لقد جلت في قاعات هذا القصر القديم ونظرت خلال خروق السقوف من غرفة إلى الكواكب الزاهية ، ثم رقيت الجدار وأرسلت بعصري يجوب أنحاء البادية ، ولكن عيني لم تقع إلا على فلاة موحشة سوداء ونجوم تليها نجوم لا ييلفها حصر ، ويبعا عن عدها الفكر .

واتتابنتي الهواجس مرة أخرى ، ولكن النبار القاتم الذي نار عند مد البصر تشع غيومها ؛ فقد ميزت في هدأة الليل وقع حوافر الشياه على رمال الطريق فأنجابت عني الشكوك وملأ قلبي الفرح وقد تبينت صوت نومان يحث الشياه على السير .

ونبحت الكلاب هذا الفوج من الطارقين فأوقدت النيران وحل كل قبلاً ليتبين هذه العبرة القريبة ، فلما اقترب القادمون رأيت على ضوء المشاعل منظرأ مملأ الصدور جبوراً وبشير الدواطف والشعور : قطع من النعم يتلوه أربعة رجال مشمرين المآزر ملثمو الوجوه ، قد كفت أيديهم من خلاف وعاقبت بنادقهم في الأعناق ، يسوقهم سوق الماشية فتى متين الهيكل ، شديد الأسر ، ماطخ الثياب بالدماء القانية ، قد اعتلى صهوة جواد أشقر ، تنوس على كتفيه ذؤابتان طويلتان كلما حرك رأسه ابرد تسمية عني ففزت عن الجدار وعدوت أشق الجوع إلى نومان هاتفاً

— المذبذبة المذبذبة أبا صخر !

— ابشر آماك الخير . . .

ومد ذراعيه فاعتنفته .

كان لهيب النار الموقدة في ساحة « الحانة الكبرى » يتلوى كرؤوس الثعابين قترقص له الظلال على الأقواس الرهيبية والأعمدة المرمرية الهائلة ، وكان نومان قائماً في وسط الساحة معتمداً على بندقيته ينظر إلى أسراه نظر الصقر إلى الفريسة ، كمرض للبطولة والتبل .

ذكر ، فلاح لميني فتى طويل القامة مثين البناء ، ملق عباءته على رأسه ، ومرسخ لثامه على وجهه ، وفوق منكبيه تنوس مذبذبان بلون الليل على ثيابه البيضاء ، قد اقتربن حاجباه فوق اللثام ، وأح مقبض خنجره خلف الحزام ؛ ومد رأني خف إلى مصاحفاً فتعاقنا ، وبادرتي :

— هيه يا نومان !

فأجابني صوت صافي الثبرات رنان :

— يا ابيك ! ما وراك ؟

فأخبرته الخبر وما سينجم عنه ، ثم قلت له :

— أنت وما ترى ، فلقد طرحت الأمر عن عاتق

فلمت الابتسامة خلف اللثام الكثيف ، وقال بلهجة الحازم الواصل :

— لعينيك أبا خالد ، فسيلنك خبري . . .

وابتعد عني يتخطى الأطناب متغلغلاً بين البيوت ، وعاد بمد يسير متملياً صهوة فرسه وقد تمتلئ بحزامين من الرصاص وبندقيته في يده ، فلما بلغ موقفي لكز الجواد وجال على ظهره جولة ثم قذف بالبندقية في الهواء وتلقفها بأصابعه والجواد يمدو ، ثم هتف بي :

— إلى اللقاء ، فانتظرنى

وأبتمت نظري وقد سار في الطريق الذي جئنا منه حتى حجبه عن عيني النبار التائر

تمددت الطلقات تمزق سكون الليل البهيم ، فاتتبه رفاق بمد أن أخذ الكرى بماقد أجنانهم فهوموا ، وأرجف من في مضيف المختار من رجال القرية أسمعهم إلى الأصوات برهة ، ثم انصرفوا إلى ما هم فيه من حديث ؛ أما المختار فقد نظر إلى نظرة المستفهم ، فأجبتة بإبتسامة الخبث وقد فهمت ما يريد ؛ فهز رأسه وتتم بكلمات غير مفهومة . وكانت أصوات البنادق لا تزال تلمع حيناً بمد حين ، وأنا متفرقة وطوراً متوالية متقاطعة ؛ وبعد هنيهة سكت كل شيء ، فوجب قلبي وتوجست خوفاً من هذا السكون ، وقد حدثتني النفس بمصاب نومان ، غير أني طردت أفكار السود وخرجت من الضيف

كان ليل البادية زاهياً ، نجومه الوضيئة المنتثرة في نواحي السماء الزرقاء ، ونسيم أول الربيع البليل يبعث بأروقة البيوت